مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 19 العدد01 2023/01/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مخطوط "رحْلَتي لزيارة قبر الوالد" للشيخ ضيف الله بن مُحمد بن أُبّ التَّوّاتي الجزائري(ق12هـ) دراسة في القضايا الدينية والاجتماعية للرحلة –

The Manuscripts of "My Trip to the Tomb of my Father"by Shaykh Dayf Allah bin Muḥammad bin Ubba al-Tuwwātī al-Jazāʾirī – A study in the religious and social issues of the trip –

أحمد جعفري[1] *

[1]جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان الجزائر

adjaafri@univ-adrar.edu.dz

الأستاذ الدكتور شعيب مقنونيف [2]

[2]جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان–الجزائر

meg_chaib@yahoo.fr

تاريخ الاستلام :2021/02/27 تاريخ القبول2021/04/03

ملخص:

يعتبر مخطوط "رحلتي لزيارة قبر الوالد " للشيخ سيدي ضيف الله بن محمد بن أُبَّ التواتي الجزائري واحدا من أهم المصادر التاريخية التي أرخت لإقليم توات جنوب الجزائر خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي (12هـ/18م) وما قبله، فالرحلة وإن كتبت أساسا في تتبع دقيق أخبار الشيخ سيدي محمد بن أُبّ المزَّمّري والد المؤلف، وأحد أعلام الإقليم في عصره إلا أنها قد حملت مع ذلك عديد الإشارات العلمية والدينية، وكذا الاجتماعية والاقتصادية لساكنة الاقليم خلال تلك الفترة، وما قبلها.

الكلمات المفتاحية: (الرحلة /المسار/توات/مخطوط/محمد بن أب/ قبر)

ABSTRACT;

The manuscript "My Trip to Visit the Tomb of my Father" by Shaykh Dayf Allah bin Muḥammad bin Ubba al-Tuwwātī al-Jazāʾirī is one of the most important historical sources about the history of the region of Twat, in the South of Algeria during and before the twelfth century Hegira, eighteenth century in the

* **المؤلف المرسل**: أحمد جعفري، **الإيميل**: adjaafri@univ-adrar.edu.dz

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

Common Era. Althoutgh the trip was written essentially in a detailed tracing of the news of Shaykh Sidi Muḥammad bin Ubba al-Muzammiri, the father of the author, and one of the prominent figures in the region in his time; it brought many scientific, religious and socio-economic signs to the inhabitants of the region during that period and before..

Keywords: Trip, itinerary, Twat, Manuscript, Muḥammad bin Ubba, Tomb

مقدمة

جاءت رحلة الشيخ ضيف الله بن محمد بن أُبَّ التَّوَّاتي أساسا –كما أخبرنا في مقدمته في تتبع أخبار والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ أحد أهم أعلام القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي (12هـ/18م) ،حيث جعل حديثه بداية ونهاية حكرا على والده في كل شاردة وواردة. وبين هذا الخبر وذاك كان المؤلف يعرج بنا الى عديد القضايا التي طبعت حياة ساكنة الإقليم خلال تلك الفترة وما قبلها، وكان لها حضورها القوي في حياة والده، أو حياته هو بنفسه، فكان يقف عند كل حادثة في كل محطة من تلك المحطات وقوف الواصف المتأمل الذي أخذ على عاتقه وصف الأحداث، والتأريخ لها بأمانة، ومصداقية حتى وإن تعلق الحدث به هو شخصيا، أو بوالده، أو بأحد أفراد أسرته.

ولما كانت الأحداث الدينية و الاجتماعية من أكثر القضايا إشارة عند المؤلف في كتابه، وهي أكبر من أن نقف عندها في حدود بحث أو مقال بعينه فإننا آثرنا الوقوف عند بعضها تمثيلا لتكون نموذجا لباقي المحطات في هذا المجال. وقبل ذلك كله وجب الوقوف عند بعض المحطات التي طبعت حياة المؤلف الشيخ ضيف الله بن محمد بن أُبَّ التَّوَّاتي الجزائري.

01/ التعريف بالمؤلف

ولد الشيخ سيدي ضيف الله(جعفري أحمد، 2015.ج01، ص 42) بن محمد بن أُبّ المزّمّري(02) – كما أخبر والده – يوم السبت السادس عشر(16) من شهر شوال سنة ثمانية وعشرين ومائة وألف (1128هـ/1716م .). وقد دعا له والده منذ ولادته بقوله " أصلحه الله، وجعله من حملة القرآن " (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 76). وعلق ضيف الله على دعوة أبيه بقوله " فقبل الله دعاءه ....ولم يكتُبْ مثل ذلك لأحد من أولاده." (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 76). ويواصل الشيخ ضيف

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الله التعريف بنفسه في رحلته قائلا :" وكان والدي يباهي بي أولاده كثيرا في عيشتي، وشاورني في كثير من أموره مع صغر سني ...وأشركني في كثير كتب حبَّسَها." (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 76).

كان الشيخ ضيف الله كما وصفه أحدُ قضاة(03)عصره أشعر من أبيه محمد بن أُبّ، وله عديد القصائد الشعرية منها مرثيته في أبيه التي أشار إليها في رحلته، ولم نقف إلا على أبيات ثلاثة منها. كما أخبرتنا الرحلة عن عديد الأخبار المتعلقة بحياته وحياة والده من جهة، وبين مختلف المسائل والفوائد العلمية التي أضْفَتْ على نص الرحلة مُسْحَة خاصة، واستطاع المؤلف من خلالها أن ينقل للقارئ كمّاً هائلا من المعلومات العلمية التي استقاها من جلساته المختلفة مع علماء وأولياء عصره الذين التقى بهم، وتناقش معهم، واستفاد منهم واستفادوا منه– كما قال – وهو ما أضفى حراكا مميزا على واقع الحركة العلمية بالإقليم.

مؤلفاته وآثاره:

لقد حمَلَت لنا رحلة الشيخ سيدي ضيف الله عديد الإشارات التي تؤكد أن للرجل قلما سيَّالا كتب به في العديد من الفنون والأغراض، ولعل ما ورد في رسالة والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ إليه بما حملته من انتقادات لاذعة حول استثمار ورق الكتابة من جهة، و تحسين الخط، واختيار المداد من جهة أخرى، كل ذلك يؤكد على أن الرجل كان مولعا بالكتابة. حيث يخاطبه والده سيدي محمد بن أُبَّ ويقول: "وأيضا رأيت أنّك في احتياجٍ أبدا إلى الكاغيد لأني رأيتك لا تكتب إلا في الظهائر سواء كان الكاغيد عندك أم لا، مع أني بعثتُ لك شيئا منه، وبعده كتَبتَ لي في كاغيد مكتوب صغير بخط رديء، ومع ذلك لا تبالي بالقلم الذي تكتب به هل هو رقيق، أو غليظ، أو مكسور، ولا بالمداد هل هو جيد أو رديء، والحاصل أمرك في ذلك مخالف لأمر الطلبة الظرفاء. ويرحم الله من صنع شيئا فأتقنه." (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 17).

كان هذا بالتأكيد في بداية الطريق حين كان المؤلف سيدي ضيف الله طالبا متنقلا بدَوَاتِه بين مجالس العلماء، لكن الرجل وبعد طول مزاحمته للعلماء تضلَّع في شتى العلوم، وأصبح بحرا ومقصدا لكثير من طلبة العلم في الإقليم، ليكون بذلك شبلا للأسد سيدي محمد بن أُبَّ الذي سأله يوما الشيخ الحاج أحمد بن سيدي يحي التميموني هل استفاد منك ابنك ضيف الله؟ فأجابه بأنه استفاد منه، وما في توات خير منه.(ضيف الله بن محمد بن أب .ص 64).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ورغم كل هذه الشهادات إلا أن الذاكرة المحلية لم تَحفظ لنا الشيء الكثير من مؤلفات الشيخ ضيف الله لحد هذه الساعة، ونحن على يقين هنا في الوصول يوما إلى ما فَلَتَ من إنتاج المؤلف الغزير. ولعل في وقوفنا الحالي على بعض مخطوطات الرجل بعد مباشرتنا العمل في تحقيق هذه الرحلة، ولم نكن قد سمعنا بها، أو بعناوينها قبل هذا التاريخ إلا خير شاهد على ما نقول.

ومن جملة ما وقفنا عليه من مؤلفات للشيخ نذكر:

أ/ مخطوطه المسمى: "الحُصون المنيعة في أحكام الوزيعَة(04)

ب/قصيدة شعرية(05). مطولة على روي القاف من اثنين وثمانين بيتا نظمها في بيان حزنه عن عدم إدراكه لكثير من علماء السلف الصالح حيث عدّد بعضا منهم وواسى نفسه بمن بقي منهم.

افتتحها بقوله:

حَزِنْتُ لِفَقدِ الصَّالحِين السَّوابِقُ *** وَعَلَّلْتُ نَفْسِي بالبَواقي اللَّواحِقِ

ولَكِن إذَا غَابُوا فَلِلْقَلبِ لَوعَـةٌ *** بِتذْكَارِهِم تُطْفي شُمُوسَ الشَّوارِقِ

وختمها بقوله:

ونَخْتِمُ نَظْمِي بالنَّبي كَمَا بُدِي *** عَلَيهِ صَلَاةٌ مَعْ سَلَامٍ مُوَافِقِ

حَزِنْتُ لِفَقدِ الصَّالحِين السَّوابِقُ *** وَعَلَّلْتُ نَفْسِي بالبَواقي اللَّواحِقِ

ج/ قصيدة شعرية(06) مطولة في نفس الموضوع السابق مع نفس المناسبة، لكن على روي اللام بدأها بقوله :

حَزِنْتُ لِفَقدِ الصَّالحِين السَّوابِقُ *** وَعَلَّلْتُ نَفْسِي بالبَواقي الأفاضل

و ختمها بقوله:

وآله والأصحاب والرسل جملة *** صلاة دواة الضحى والأصائل

د/ مخطوط قصيدة في جمع أذكار الفِدْيَة من النَّار(07) مطلعها:

الحمدُ لله العظـــيمِ البَاري مُنْجي العبيدَ من عـذاب النّــار

و ختمها بقوله:

وَصَـــلِّ أَوَّلًا وَآخِراً عَلَى سَيِّــدِنا مُحَمَّدٍ خَيْـــرِ الملَا

هـ/ بعض النوازل والفتاوى الفقهية المختلفة التي وقفنا عليها هنا و هناك.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وإلى جانب التأليف مارس المؤلف الشيخ سيدي ضيف الله نسخ المخطوطات التي وقعت في يده ليُكَوِّن منها مكتبتَه الخاصة، وفي ذلك ينقل لنا الشيخ سيدي المغيلي بن أحمد بن عبد الرحمان الزَّجلاوي في رسالته التي بعث بها للشيخ سيدي أبي فارس محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي، وراجعه فيها حول تشديد ميم لفظة (عَمَّرَ) بدلا من تخفيفها، وما ثبت في ذلك من نقول عن علماء عصره، وفي مقدمتهم الشيخ ضيف الله بن محمد بن أُبَّ الذي وصفَه الكاتب بقوله: ".... فأما الأول فشهد له والده سيدي محمد بن أُبَّ أنه لم يُخَلِّف في توات مثله، فوجدت بخطه نسخة من تخميس الشاطبي لأبيات (سكن الفؤاد) الخ."(08).

وفاته :

لعل آخر ما وقفنا عليه ضمن رحلة البحث عن وفاة الشيخ ضيف الله بن سيدي محمد بن أُبَّ في آخر عهدنا به هو ما سجله بنفسه في نهاية مخطوطه "الحُصون المنيعة في أحكام الوزيعَة" وأخبرنا أنه كان حيا حتى أواخر شهر شعبان من سنة ثمان وسبعين ومائة وألف(1178هـ) حيث قال في نهاية تأليفه : "...عصمنا الله بفضله، ورزقنا العلم والعمل به، وأعاننا على القيام بحقه إنه قريب مجيب. على يد جامعه أواخر شعبان المنير عام ثامن وسبعين ومائة وألف. عبيد ربه ضيف الله بن محمد بن أب كان الله له ....بحمد الله وحسن عونه، وصلى الله على سيدنا محمد و آله " .(09)

02/ التعريف بمخطوط "رحلتي لزيارة قبر الوالد":

يعتبر مخطوط رحلة الشيخ ضيف الله بن سيدي محمد بن أُبَّ المزَّمّري لزيارة قبر والده محاولة جادة من المؤلف لرصد وتتبع مجموع أخباره، وأخبار والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ على مدار محطَّات رحلات ثلاث قام بها المؤلف انطلاقا من مسقط رأسه، وصولا إلى قبر والده، وقد كانت الرحلة الأولى من المؤلف في حياة والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ ـ كما قال ـ وبقي معه عشرين يوما. أما الرحلة الثانية، فقد جاءت بعد تلقيه نبأ وفاة والده، لكنها لم تكتمل، وتوقفت بعودة ابن عمّه سيدي محمد وديعَة الله الذي رجع ومعه جزء من تركة المرحوم، فهَمَّ المؤلف راجعا لبلده، ومن هناك استعد للرحلة الثالثة والكبيرة لزيارة قبر والده.

ولقد اعتمدنا في دراستنا لهذا المخطوط على نُسختَين مختلفتين، وبخط ناسخين مختلفين أيضاً، حيث جاءت النسخة (أ) من هذا المخطوط في مائة وعشر (110) صفحات من الحجم الكبير، بمعدل

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ثلاثة وثلاثين (33) سطرا في كل لوحة، وعشرين كلمة في كل سطر تقريبا. وقد جاءت هذه النسخة بخط مغربي دقيق جداً، ختمها المؤلف بمجموعة من الملاحق لبعض القصائد و المنظومات.

وفي هذه النسخة (أ)عديد الإشارات التي توحي لنا بأنها منقولة من خط المؤلف، وليست نسخة المؤلف نفسها من ذلك ما وردفي هامش متن الصفحة السابعة والتسعين ما نصه: "دلدول أولا د محمود بتَبَعٍ، كذا بخط المؤلف في الأصل، فإنّي لم أفهمه" وهنا نرى الناسخ يستغرب من ورود بلدتين متتابعتين، وهما (دلدول، وأولاد محمود) دون فاصل بينهما، رغم أن الأصل أن كلا منهما مستقل عن الآخر.

كما جاء في داخل متن النسخة (أ) إشارة توحي بأن الرحلة وإن كان الشيخ سيدي ضيف الله قد قام بها في صيف سنة 1160 هـ/1747م إلا أنه استمر في تبيضها إلى سنة 1168هـ،/1755م، وذلك عند حديثه عن الشيخ أبي الأنوار حيث جاء في هامش متن أعلى الصفحة التاسعة والستين ما نصه: "وتُوفي الشيخ سيدي أبو الأنوار يوم السبت الرابع والعشرين من هذا الشهر، وفي هذا الوقت عام 1168هـ/1755م من خط المؤلف". (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 69)

وقد جاءت هذه النسخة تحمل عناوين فرعية صغيرة على الحواشي، وخالية من التعليقات الهامشية إلا نادرا، ولم يخصص الناسخ للعنوان جانباً، أو صفحة خاصة، بل ورد ضمن السيَّاق العام. كما أننا حين نقف على النص المكتوب بالهامش الأيمن من الصفحة الثامنة والتسعين (98) نجده يحمل توقيع كاتبه، وهو عبيد الله تعالى محمد الحسن، بن سعيد بن عبد الكريم، بن محمد بن البكري. وهو نفس الخط الذي كُتب به متن الرحلة في نسختها (أ)، مما يرجح أن يكون الشيخ سيدي محمد الحسن بن سعيد البكري هو ناسخ هذه النسخة. ولعل ما يؤكد ذلك أكثر هو عثورنا على هذه النسخة من الرحلة ضمن مجموع واحد يحمل مخطوطا آخر ينسب للشيخ سيدي محمد الحسن بن سعيد وهو مخطوطه المعنون ب: تنبيه الأُخُوة بأَخبَار بعض أَهلِ الفُتُوَّة والمسمى أيضا: "إعلام الإخوان بأخبار بعض السادات الأخيار". وقد خصه المؤلف لتراجم العائلة البكرية، واستفاد فيه من بعض النصوص والتراجم الخاصة بالعائلة، والواردة في متن رحلة الشيخ سيدي ضيف الله.

أما النسخة الثانية للمخطوط التي رمزنا لها بالرمز (ب)، فهي تقع في ثمانين صفحة من الحجم الكبير، بمعدل تسعة وعشرين (29) سطراً في كل صفحة، وثمانية عشرة (18) كلمة في كل سطر تقريبا، وجاءت هذه النسخة بخط مغربي غليظ، بعض الشيء، ويبدوا أن ناسخها –وللأسف الشديد–لم يكن

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يهُمُه كثيرا التأريخ لأهم الأحداث التي وقعت للمؤلف في بعض بلدات الإقليم، فراح يتصرف من البداية في فقرات النص بالحذف العمدي للعديد من أخبار المؤلف، وكذا أخبار والده. وقد وصل به الحد إلى حذف صفحات بكاملها، مع الإبقاء على ما ورد من معلومات فقهية وغيرها، والربط في ما بينها بداية ونهاية. وهو ما صعَّب علينا عملية المقابلة بين النسختين أحيانا.

وقد جاءت هذه النسخة (ب) مبتورة من بداية المؤلف التي رأينها في النسخة (أ)، واكتفى فيها الناسخ بالدخول إليها من حديث المؤلف عن الضيف وحقوق الضيافة، رغم أنه صَدَّرَها هو الآخر بالبسملة والصلاة والسلام على رسول الله حيث قال: "فأول ذلك الضيافة، ففي البخاري: باب إكرام الضيف، وخدمة ضيفه جائزة" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 01).

أما في الختام، فقد جاءت النسخة ناقصة من بعض صفحاتها المتعلقة أساسا بما جاء من ملاحق في النسخة (أ).

وبالنظر إلى كل هذا فقد اعتمدنا النسخة (أ) أصلا بالنظر إلى ما توفَّر فيها من شروط مقارنة بالنسخة (ب)، وقابلنا عليها النسخة (ب) لنخرج في الأخير بما نعتقد أنه النص الأقرب إلى ما كتبه المؤلف، أو أراد قوله، ومع هذا فقد اجتهدنا قدر المستطاع في رد كثير مما سقط من المخطوط في نسختيه (أ) و(ب)، وبخاصة ما تعلَّق بنقوله من المصادر والمراجع، وإلى هذا كله فقد تعسر علينا إكمال عدد غير قليل من الكلمات، والعبارات الساقطة من النسختين معا، رغم جهدنا المبذول في ذلك، واكتفينا أخيرا برسم نقاط ثلاث دلالة على السقط في أمكنته.

ولقد جاءت الرحلة إلى جانب موضوعها الأساسي الذي كتبت من أجله مليئة بالأحداث والقضايا التي طبعت الساكنة في مختلف تفرعات الحياة، –كما ذكرنا– وحديثنا في هذا الجانب هو من باب التمثيل لا الحصر بالنظر إلى تشعبها وكثرتها من جهة، وإلى طبيعة الموضوع وخصوصياته من جهة أخرى.

أهم القضايا الدينية في الرحلة:

لقد جاءت الرحلة من الناحية الدينية مليئة بالقضايا والنوازل الفقهية التي كانت سائدة في عصر المؤلف وما قبله، حيث نراه يعرض للنازلة وشرحها ومصدرها، كما نراه يتعقَّبُها في كل ما أتيح له من كتب الفقهاء والمحدثين على كثرتها، وبين هذا وذاك نراه يعرض لبعض الفوائد الدينية والدنيوية، وكذا بعض الغرائب والمضحكات دفعا للسأم والملل في تتبع كل ذلك كعادة كل كُتّاب الرحلة على عهده.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ولعل من أهم المواقف التي تشـــد الناظر إليها بداية في هذه الرحلة هو موقف المؤلف الشـــيخ سيدي ضيف الله، وكذا والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ من بعض القضايا الفقهية الخلافية التي كانت ولا تزال ســائدة في الإقليم التّواتي حتى الآن، ومنها مســألة التوســل بالأولياء الصــالحين حيث لم يكتف المؤلف بعرض ما سمعه من والده من أهم الأدعية المأثورة، والتوسلات المنقولة أمام أضرحة الأولياء عموما، بل راح يحكي لنا نقلا عنه أهم ما وقع له من بعض الكرامات أمام قبور، وأضـــرحة بعض الأولياء في المنطقة حيث ينقل لنا المؤلف ضيف الله على لسان والده قصة علاقة أُمّه بأبيه، وما وقع فيها من بعض الأمور الخاصة له ولأبيه، حيث يقول المؤلف في كل ذلك :" وكان يقول لي رحمه الله – حين ينبسط معي – ما تســألني حقا ما بقيَ [صــالح إلا وزَوَّجْتُك] .فأول ابتدائك أنّي حين جئت تِدَكَلت لأخطب أمك، أخبرني الشـــريف مولانا عبد الرحمن بن مولاي عبد الله بن هيبة أنه رأى النبي ﷺتحت نخلة بين أولف ودابدر، ووصفها لي فقصدتُها، ودعوت النبي ﷺأن يرزقني مع هذه المرأة ذرية صالحة، وحضر للعقد على أمك البركة سيدي أحمد بن سيدي أحماد، وهو الذي عقد عليها، وكتبه بخطه، ودعا الله كذلك." (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 75).

وفي موقف آخر ينقل عنه أيضا: "وبينا أنا قائل بأمك بزاوية لحشف(10)، وأنت صبي صغير إذ أنا برُغاء الأبل، فخرجتُ فأنا بالبركة سيدي عروة في صعود للحج، وحين سلّمت عليه، قال : الماء البارد، فعمدت إلى سفرة عندي فيها شنّين بارد، فأتيته به فشرب حتى ارتوى. أتيت بك إليه، فقلت له: إن هذا يا سيدي عبيدك فادع الله له، فدعا وبصق لي في فمي." (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 75).

كما ينقل عنه في موقف آخر قوله: "وجاء بهلول لبلدنا فزوَّرني له. وزورني بجائزتي لسيدي علي بن حنيني المذكور، ووقعت لي فيه كرامة. حدّثني بها والدي –رحمه الله – و أنا صبيّ صغير لا أعقل شيئا من ذلك، قال لي: كُنتَ راكبا على ظهر العبد، فخرجنا، وخرج معنا [الولي المذكور] يشـــيّعُنا، فأخذنا في الدعاء، فرفعنا أكفَّنا فقلتُ: إياك نعبد وإياك نستعين، فقال سيدي أحمد بن السيد حمادو–وكان معنا: اسكتوا ما يقول هذا الصبي؟ فقال الشيخ: وقد فهم ذلك اشتغلوا في شُغلكم إن الصبيَّ كان يلغَط انتهى" .(ضيف الله بن محمد بن أب .ص 75)

وما يقال عن زيارة القبور والتوسل بالأولياء، يقال كذلك عن حُكم البناء عليها، أو ما يعرف محليا بالرَّوضة أو الأضرحة حيث فصَّل المؤلف في الموضوع تفصيلا، ولخص حكم تَطْيِين القبر، أو تبيضه

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

،والبناء عليه كقبة، أو بيت أو سقف انطلاقا من ثلاثة أحوال لا رابع لها، وفي كل حكم كان يستند إلى ما جاء على لسان والده سيدي محمد بن أُبَّ من جهة، وعلى ما اطَّلَع عليه في كتب الفقهاء والمحدثين.

وفي كل هذا لا ينبغي أن ننسى أن والد المؤلف الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ هو من نظم سلسلة الأنوار التي توسَّل فيها بحق جاه صديقه الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني، وكافَّة أشياخه في السلسلة، حيث يقول الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ في مطلع قصيدته:

الحَـمْدُ لِلهِ مُـجِيبِ السَّـائِلِ إذَا دَعَـا بِأَعْـظَـمِ الوَسَـائِـلِ
ثُـمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّـلَامُ مَعَـهَـا عَلَى الذِي حَوَى العُلَا أَجْمَعَـهَـا
وآلِـهِ وَصَحْبِـهِ وَكُـلُّ مَـنْ نَـالَ الهُدَى بِهَدْيِهِمْ طُولَ الزَّمـنْ
وَبَـعْـدُ فَارْفَـعْ حَاجَةً لِلْبَارِي بِمَنْ حَوَتْ سِـلْسِلَـةُ الأَنْـوارِ
مِنْ جُملة الأقطاب والأشـراف والعُلَمَا السّنّيّـة الأَوْصَـافِ
وأَصْدِقاً لَهَا بِـحُسْـنِ الأَدَبِ تلقى الذي ترجو من أسنى الرتب
وقُلْ إِذَا سَـأَلْت بِسـم اللـه يا رَبِّ إِنّي سَـائِلٌ بِـجَـاه
وَلِيِّـكَ الذِي أَنَلْتَـهُ الشَّرَفْ والعِلمِ وَالجُودِ وَفَضْلِ مَنْ سـلَفْ
مَـوْلَاي عَبْـدَ المـالِكِ الرَّقَّانِي صَالِحِ هَـذَا الـوَقْتِ فِـي العَيَانِ
وَشَيْخِـهِ وَالِـدِهِ الذِي ظَهَرْ لكلِّ دَاعٍ بِالتَّوَسُّـلِ اشْتَهَرْ

والرحلة في كل هذا جاءت لتعكس لنا كثيرا ممّا كان يعتقده سـاكنة الإقليم –ولا يزالون – في زيارة أضرحة الأولياء، والتَّوسل بهم والدعاء لهم. وفي ذلك نرى المؤلف يتوجه مباشرة بعد دخوله لأي بلد من بلدان الإقليم إلى ضـريح ولي تلك البلدة يزوره، ويدعوا بما شـاء عنده، ثم يتوجه بعد ذلك إلى أهل البلدة.

وإلى هذا كلّه جاءت الرحلة حُبْلى كذلك بالعديد من النوازل الفقهية المحلية التي عاشـها سـاكنة الإقليم، واستفتوا فيها علمائهم من أمثال المؤلف الشيخ ضيف الله، ووالده الشيخ محمد بن أُبّ، والشيخ سيدي عبد الرحمن الجنتوري وغيرهم. فهذا له ساقية قديمة بأرض رجل، ثم أراد أن يُخرجَها إلى أرض أخرى، ثم يردها إلى بعض مجراها الأول بغير رضاه، هل يجوز له ذلك أم لا ؟ . وذاك رجل له نخل على ساقية لغيره

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

في أرضـه، ثم أراد أرباب السـاقية نقلها عن تلك النخلة بغير رضـا ربّ النخل هل لهم ذلك أم لا ؟ وذلك يسأل عن حكم شرب الدخان، واستعمال التبغ وما إلى ذلك.

ولعل من أهم القضايا الدينية الحساسة التي وقف عندها المؤلف مطولا، وهي نموذج في ذلك لطريقة الإفتاء والتعامل مع النازلة عند الرجل هي قضية الاسْتِرْعاءُ التي كانت سائدة في الإقليم، وتصدَّى لها بعض معاصريه، وأفتوا ببطلانها كما الشأن مع الشيخ الجنتوري،(11) و الشيخ أبي حفْصٍ سيدي عُمَر(12) حيث يقول صاحب الرحلة: " وأما الاسْتِرْعاءُ المطلق الواقع في بلدنا هذا، وتمادى قضاتنا على إعماله، وهو أنه قَلَّ من لا يُوجَدُ عندَه الاسْتِرْعَاءُ به، متى أعتَق، أو وَهَبَ، أو تَصَدَّقَ، أو أَعْمَرَ، أو حَبَّسَ، أو صَالَحَ، أو تَرَكَ من حَقِّهِ شَيئا، أو صَدَرَ منه طلاق عَمْداً أو نِسْياناً، أو غَلَطاً أو فَلْتَةً، أو نَحْوِ ذلك، فهو غير مُلْتَزِمٌ لذلك، ثم يُمْسِكُ اسْتِرْعَائَهُ، ويَتَحَفَّظُ عليه، فَكُلُّ مُعَامَلَةٍ صَدَرَتْ مِنْه نَظَرَ فيها وتأمَّل، فإن أعْجَبَتْهُ سَكَتَ واسْتَمَرَّ عليها، وإن لَمْ تُعْجِبْهُ قام باسْتِرْعَائِه فَأبْطَلَهَا، فَهَذا لا أعْلَمُ بَيْنَ المسلمين خِلافا في بُطلانِه، وعَدَمِ إعْمالِه، لأنَّهُ ذَرِيعَةٌ إلى إتلاف مال المسلمين، وتَحْلِيلِ الفُرُوجِ بغَير حَقٍّ، واتخاذِ آياتِ اللهِ هزء، بِرفْعِ مَشْروعيةِ الطَّلاق، وبابِ التّبرعات، فنرى الواحدَ يتَحَمَّلُ حَمالَةً فيَقومُ بالاسْتِرْعاء المطلَقِ فيُبطلها، فهذا لا يَحِلُّ السُّكوتُ عَنْه، وقَلَّ أنْ تَجِدَ أحَدا إلا وفي يَدِهِ اسْتِرْعَاءٌ مُطْلَقٌ في كُلِّ ما يَصْدُرُ منْهُ، فإن أعْجَبَهُ سَكَتَ، وإلاَّ قَام باسْتِرْعائِهِ، فَيَعْمَلُ لَهُ به قُضاتُهُم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقَلَّ أن تُوجدَ عَامٌّ إلا وفي يَدِهِ اسْتِرْعاءٌ، فَيحلِفُ بالطَّلاقِ ويَرُدُّها مِرَاراً أكْثَرَ من ثَلاثٍ بِلا تَحْدِيدِ عَقْدٍ، مَعَ عَدَمِ عِلْمِ العَامّي بشروطِ الاسْتِرْعاءِ مِنْ أنَّه لا بُدَّ وأن يَكونَ لَه سَبَبٌ، وقَد يُوجَدُ ذلك السَّببُ، وأَنْ يَستَحْضِرَ اسْتِرْعائَه في نِيَّتِهِ عند التَّلَفُّظِ بالطَّلاقِ. بهذه الشُّروط ينفعَ الاسْتِرْعاءُ، لأنَّهُ حِينئذٍ مُطَلِّقٌ بالقَصْدِ لِحَلِّ العِصْمَةِ فَلا يلْزَمُهُ، لأنه قد اختَلَّ رُكْنٌ مِنْ أرْكانِ الطَّلاقِ الذي هُوَ القَصدُ، وإن اسْتَحلَفَ أنَّهُ اسْتَحْضَرَ اسْتِرْعائَهُ في نِيَّتِهِ، وإنَّما طَلَّقَ لأجلِ ذلك السَّبَبِ الذي اسْتَرْعَى لأجلِه، لا لغَيرِهِ كما يأتي ذلك وكأنَّهُ مُلِمٌّ، أَمَّا إنْ لَمْ تُوجَدْ تلك الشروط، فلا عَمَلَ عَلَيه لأنَّهُ اسْتِرْعاءٌ مُطلَقٌ." (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 83).

ونرى المؤلف لا يكتفي بعرض وجهة نظره في المسألة فحسب، بل راح يورد لنا إلى ذلك أهم الأجوبة التي تلقاها من أشياخه على أسئلته في المسألة، مثلما هو الأمر مع جواب شيخه أبي حفص حيث قال :" سألتُ شيخَنا العلامةَ الحافظَ أبا حفْصٍ سيدي عُمَر – رحمه الله– في سُؤال ما نَصُّهُ: ما تقولون في رَجُلٍ اسْتَرعَى، واسْتَحفَظَ واسْتَكْتَمَ في صِحَّةِ بَدَنِهِ على جَمِيعِ ما يَصْدرُ مِنهُ مِنْ هِبَةٍ وصَدَقَةٍ وغَيرها من

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التَّبرعات كالحمالة، وأنَّه متى صَدرَ منه شيء مما تقدَّمَ، أو طلاقِ زوجَتِهِ، فهو غيرُ مُلتزِمٍ لذلك، طال الزمان أو قَصُرَ، ثم إن هذا المسْتَرعي أوصى في مرضِه الذي تُوفي منه لشَخْصٍ بثُلُثِ مُتَخَلِّفِهِ، فلَمَّا مات قام ورثَتُهُ بالاسْتِرعاءِ المذكُورِ ،فهلْ لهُ ذَلك أم لا؟.

فأجاب: الحمدُ لله لا يَمْتَري أحدٌ في أن الاسْتِرعاءَ على الصِّفَةِ المشارِ إليها لا يُفيدُ، لأنَّهُ استَرعَى لغيرِ مُوجبٍ، ولا ضرورة دعت إليه، وإنما يفعل تَخَيُّلاً على الغَيرِ، وأنَّه يَسترْعي على كلِّ ما يَصدرُ منه، فإنَّه لا عملَ عليه، فإذا عقَد عقدة مع شخص [فإن أعجبه] الحال أمضاها، وإن لم يَعجبه ردَّها، أو على أنه استرعى، وأنه لا عمل على ذلك، وهذا لا يُقبلُ منه لأنه يعد [ندما ولا ينفعه] هذا الاسْتِرْعاء، وإنما الاسْتِرْعاءُ الذي يفيدُ هو أنَّه إذا أراد أن يفعلَ فِعلاً من غير رغبةٍ بل خَوفاً مثالا ومست خراجا لَحِقَهُ أو نحو ذلك، وما أشبَهَ ذلك لما يُرعَى، وأنه غَيرُ مُلتزِمٍ، وأنه إذا زال ما يتقيه فإنه يقوم ثم أطال شيخنا – رحمه الله –في جوابه، وأتَى بالنُّقُولِ على ذلك، ومُحَصِّلُهُ هو ما ذكَرنا من الاسْتِرْعاءِ لا بُدَّ أن يكونَ لسَبَبٍ معين وأنه لا يُشتَرطُ عِلمُ الشهودِ به، إلا إذا تَعَلَّقَ به حَقُّ الغَيرِ كالمعاوَضاتِ، وأنَّهُ لا بُدَّ أن يُوجدَ ذلك السبب به وأن الاسترعاء المطلق لا عَملَ له .وأتى شيخُنا – رحمه الله – بالنُّقُولِ الدالة عليه يَطولُ جَلبُها" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 83).

و قبل وصول المؤلف إلى تحديد رأيه في الموضوع مشفوعا بما وقف عليه من أدلّة، فإنه يُخبرنا أولا بأهم ما كتَبَه شيخُه سيدي عبد العالي في الموضوع، وفصَّل فيه أدلَّة ونُقولا حيث يقول: "... وقد جمع شيخُنا سيدي عبد العالي – رحمه الله –كرَّاسا بالكراس الربَّاعي جمع فيه أقوالَ من تَكَلَّمَ على الاسْتِرْعاءِ من أهل الدَّواوينِ، وشَفَا وبالغ في النُّقُولِ الصَّريحة بأن الاسترعاء لا يكونُ إلا لسَبَبٍ مُعَيَّنٍ، ومن جُملةِ ما نَقلَ ما نَصُّهُ : ما نُسِبَ لأحْكامِ ابنِ الحاج أن سيدي محمد العزاوي ﷺ سئل عن رَجُلٍ أَشْهَدَ شُهودا أنَّ كُلَّ ما يَقَعُ مِنهُ من طلاق لزوجتِه فهو غيرُ ملتزمٌ له، وإنما يفعله تأديبا، والفرض إنه غير مُكرَهٍ ولا خائفٍ، فهل يَلزَمُهُ ما يُوقِعُهُ مِنْ طلاق أم لا؟

فأجاب: الحمد لله، اختلَفت طُرقُ شيوخِ المذهب في إعمال الإستِحْفاظ في الطَّلاق، فمنهم من يقتصرُ على إعمال الإستِحفاظ لا يذكُرُه غيرُه، ومنهُم من يَحكي المذهبَ على قَولين: الإعمالُ وعدَمُه، وكان الإعمالُ عندَهُم هو الأصلُ، أي عينُ المستَحْفِظِ الذي لأجلِهِ استَحفَظَ، وهو التَّأديبُ، فإن وقع الطَّلاق عليها من غَيرِ عِوضٍ عند إساءةِ الأدبِ، ونُشُوزٍ واستِعصاءٍ وامتناعٍ مِمَّا هو مطلوبٌ منها في حَقِّ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الزَّوجِ، وإن قال: كنتُ استَحضرتُ الإستِحفاظُ عند الطَّلاقَ، فإن استَظهرَ عليه بيَمينٌ في هذا الفصلِ فَحبَّسَ انتهى". (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 83).

وفي نهاية المطاف نرى المؤلف يقف عند هذه النقول جميعا محللا ومدققا ليخلص بعد ذلك إلى إبداء وعرض موقفه إجمالا في الموضوع حيث يقول: " انْظُر للاسْتِرعاءِ الذي في هذا السؤال، فإنه لِسَبَبٍ مُعيَّنٍ على أمرٍ مُعيَّنٍ، وانظر إلى جوابِه عجيب من أنه لا بد من وجود ذلك السبب بعينه عند إرادة الطلاق، وأنه لا بد من استِحضاره عنده، وإلا لَمْ يَنفَعهُ، وهذا نَحوَ ما تَقَدَّمَ لشيخنا – رحمه الله تعالى – ونَحوَه ما وقَع للبرزلي مع زوجته، فأنظره. هذا مع ما جرى في بلادنا من إعمال الاستِرعاء مع كونِ المطلَّقِ غافلا عنه حين الطلاق، وقد يَستَرعي عنه خَشيَةَ صُدورِ الطَّلاق منه، وهو لا يشعر، والعَجَب من قُضاتِنا حيث تبعوهم على إعْمال هذا الاستِرعاء، وإنا لله وإنا إليه راجعون" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 84).

ومن جملة القضايا الدينية التي وقف عندها المؤلف في رحلته هو موقفه، ووالده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ، وكذا بعض علماء عصره من قضية شرب دخان الورق المسمى تبغ، وفي ذلك يعرض لنا ما وقف عليه بخط والده في المسألة ويقول: "وُجِدَ عندي ما نصُّه بخط والدي في (حاشية سيدي أحمد بابا التنبكتي على خليل) عند قوله : وخَشَاش أرض، ما نصه: فرع قال في (العُمدة): والنَّباتات كلُّها مباحة إلا ما فيه ضرر، ويغطي العقل انتهى. قلت: وبهذا تَعْلَمُ جواز شرب دخان الورق المسمى تبغ، وقد ظهر شربُه في أول القرن الحادي عشر بعد الألف. وبه أفتَيت في بلد المغرب مراكش ودرعة اعتمادا على كلام ابن عسكر وغيره . وألَّفت فيه كراسا سميته: (اللُّمَع في حكم شرب تبغ) والله أعلم من الحاشية المذكورة" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 66).

ونرى المؤلف بعد عرضه للمسألة يسترسل في عرض أهم ما وقف عليه من الفتاوى الصادرة في الموضوع من جهة، وما وصله من ردود على أسئلته الخاصة التي وجهها لبعض علماء عصره كما قال: "ومن (الفتاوي الأجهورية): وسئل عن شرب الدخان هل هو حلال أو حرام؟ فأجاب. لا يحرم استعماله إلا لمن يغيب عقله، أو يضره في جسده، هذا الذي تجب له الفتوى، وما ينسب لبعض الناس من التحريم محمول على من يضره في جسده، أو يُغَيِّبُ عقلَه، وكل شيء يخالف هذا فلا يعول عليه، وكل حديث ينقل عنه فباطل والله أعلم.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وقد ألف فيها الإمام الأجهوري رسالة في منافعها وحكمها سماها: (غاية البيان لحل شرب ما لا يُغَيّبُ العقل من الدخان). ونظم القاضي أبو سعيد قصيدة ولولا الإطالة لجلبت ذلك وفيما ذكرت كفاية عما هنالك.

فلما ملأ سمعي كلامهم كتبت سؤالا للسيد محمد بن عبد الله بن الزبير المذكور في ذلك، وقلت: لعل أن تكون له خبرة بما أفتى به والده، فأجابني بما نصه: الحمد لله فالناس في ذلك سواء، لأن الوحي بعد العلم لم ينزل بالتخصيص إلا ما خص، وكتب عبيد الله تعالى محمد بن عبد الله بن الزبير." (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 67).

ومن المسائل الدينية التي جاءت بها الرحلة كذلك موقف المؤلف الشيخ سيدي ضيف الله، ووالده الشيخ سيدي محمد بن أب من بعض ألوان الغناء، وما يدور في فلكه، حيث يستعرض لنا المؤلف بداية موقفه من بعض مرافقيه الذي كان يَحْدُوا بقُربه وهو يقرأ القرآن ليعطينا صورة عن المشهد قبل أن يمر على المسألة من الناحية الدينية، وأهم ما جاء فيها في مدونة الفقه المالكية تحديدا حيث يقول: "حكاية: بينما نحن سُرَاة في بعض الليالي المتقدمة وأنا أقرأ وأصحابي يغنون، وبعضهم يحدي إذ سمعته يقول:

اصْبَرَ يَا قَلْبِي أَ تَاتِيكَ الصَّبر كَيْفَ اصْبَرَ اجمَال عَلَى حَمْلَو

يَتَوقَّف مَسْكِين مَا صَابَ احْوَى كُنتْ غَايَسْ فِيه واعرَاه انحَل

عَاري فَالقَافل غيَاب أَهْلُ

فأعجبني كلامه .قلت: عرفنا باطنه، فوجدته حكمة بالغة والحكمة ضالة المؤمن فأينما وجدها أخذها. عن أبي هريرة. قال :قال رسول اللهﷺ: "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها" أخرجه الترمذي من مختصر (جامع الأصول في حديث الرسول). وقد كنت أريد أن أزجرهم قبل ذلك، فاعتبرت وصبرت على غناهم بكلامه" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 50).

وبعد هذه المقدمة الأولية في مسألة الغناء يخلص المؤلف إلى مناقشة أهم ما جاء في كتب الفقهاء حول المسألة موردا كل ذلك في باب خاص عنونه ب (تنبيهات) حيث قال: "...فإن قُلْتَ إن الكلام الذي جلبنا عليه هذه النصوص من الغناء الذي لا يحل سماعه، فضلا عن حفظه. قال في (الرسالة): ولا سماع شيء من الملاهي و الغناء.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قُلتُ: قال التَّاتَّائي: وأما سماع الغناء العاري عن اللهو والتصفيق بالأيدي والطرب والكفاف فليس بحرام . ومن (الفواكه) بعد كلام فيه : وَأَمَّا سَمَاعُ الْمُتَصَوِّفَةِ فَالْمَشْهُورُ جَوَازُهُ حَيْثُ يَحْصُلُ بِالسَّمَاعِ تَنبيه، أو إرْشَادٌ أَوْ زِيَادَةُ يَقِينٍ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يُطْلَبُ شَرْعًا، وَلَمْ يَشْتَمِلْ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يُنْكَرُ كَاجْتِمَاعِ نِسَاءٍ وَ صِبْيَانٍ يُتَوَقَّعُ الِالْتِذَاذُ بِهِمْ وَإِلَّا مُنِعَ.

قلت: ظاهر العلة جوازه لما فيه من الفائدة بغير منع انتهى. فالسماع يشمل ما يسمع على أي صفة، وتجري العلة فيه مجراها. و من (ابن ناجي على الرسالة) بعد كلام ما نصه: وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين، وسماع صوت الطيور، وأنواع الملهيات مما يلهوا به الرجل لا يحرم شيء منها، وأن جاوز وصفه بأنه باطل انتهى المراد منه. وانظر كلامه إلخ تستفد انتهى" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 50).

ويواصل المؤلف في عرضه لآراء الفقهاء في المسألة وفي مقدمتهم والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ حيث يقول: "من خط والدي – رحمه الله –ومنه سئل مالك عن السماع فقال: ما أدري إلا أن أهل العلم ببلدنا ينكرون ذلك ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا ناسك غبي، أو جاهل غليظ الطبع.

وقال أحمد بن حنبل رأيت أبي يستمع لسماع كان عند بعض جيراننا من وراء الحائط، وممن مال للقول به ابن حبيب في جماعة صح من (قواعد زروق).

ومن (الحاوي) للسيوطي ما نصه: واستفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام في السماع. فأجاب: حَرَّمَه من يرجع في الأمور الشرعية إليه، وأباحه من ليس لنا أن نعترض عليه، وإنما هو أمر مُبهم، وصاحبُه على خطى ممَّن عرف الطريق من إباحة، وإلا فطريق من حرَّمه أسلم. وقال ابن المسيب في قوم يعيبون الشعر نكسوا انكاسا .قال التنسي: أكثر العلماء على جواز الغناء بغير آلة وبالآلة التي هي الغربال، وأكثرهم على المنع بباقي الآلات انتهى من خط والدي – رحمه الله –.

وكان والدي – رحمه الله – في زمن الشبيبة هو وبعض الأكابر من العلماء والصالحين ومن يقتدى بهم ويشار إليهم يغنون. وحدَّثني – رحمه الله – أنه دخل على القائد ولد الغنجاوي بعد العشاء ،فوجده مع بعض أصحابه يغنون بالآلة، وأجلسه في صدر المجلس، واستنشده الشعر فأنشده إياه، وأكرمه غاية الإكرام لما وافق في الشعر أهل ديوانه على منواله.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وقال في (الرسالة القشيرية) في باب معرفة أحكام السماع : قال سبحانه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ . قال الأستاذ الإمام أبو القاسمﷺ : واللام في قوله تعالى تقتضي التعميم والاستغراق، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الأحسن.

و قال تعالى : ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾. جاء في التفسير إنه السماع. مالك بن أنس، وأهل الحجاز كلهم يبيحون الغناء. وروي عنه ﷺ: " استنشدوا الأشعار " ومن المشهور أنه دخل بيتا لعائشة – رضي الله عنها – وفيه جاريتان تغنيان فلم ينههما، وعن عائشة – رضي الله عنها –أن أبا بكر ﷺ دخل عليها وعندها قِينَتَان تُغَنِّيَان بما تعارفت به الأنصار يوم بعاث، فقال أبو بكرﷺ: مزمار الشيطان . فقال رسول اللهﷺ: " دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدا، وعيدنا هذا اليوم". وعن عائشة – رضي الله عنها – أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار، فجاء النبي ﷺ فقال: " أهديتم الفتاة " فقالت [نعم، وقال:] فأرسلتِ من يتغنى. قالت: لا .فقال النبيﷺ : " أفيهم غزل فلو أرسلتم من يقول: أتيناكم أتيناكم، فحيانا وحياكم ."

وقد روي أن رجلا أنشد بين يدي النبي ﷺ شعرا

أقْبَلَتْ فَلَاحَ لَهَا عَارِضَانِ كَالسّرج
أدْبَرَتْ فَقُلْتُ لَهَا يا فُؤَادِي الوَهج
هَلْ عَلَى وَيْحَكُمَا إن قَد عَشِقْت من حَرَجْ

فقال رسول الله ﷺ: "ألا وإن الصوت الحسن مما أنعم الله على به على أصحابه من الناس". قال الله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾(سورة فاطر .الآية 01). قيل في التفسير: ذلك الصوت الحسن. وذم الله تعالى الصوت القبيح فقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(سورة لقمان .الآية 19) واستلذاذ القلوب، واشتياقها إلى الأصوات الطيبة، واستراحها إليه مما لا يمكن جحوده، فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسي تعب المسير ومشقة الحمولية فيهون عليه بالحُداء." (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 50).

ومن القضايا الدينية التي حملتها الرحلة كذلك نذكر موقف المؤلف، وكذا والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ من تعليق التمائم، والأدعية التي كانت ـ ولا تزال ـ منتشرة في الإقليم كما في غيره من الأقطار المغاربية والإفريقية، حيث نرى المؤلف يعرض علينا وفي أكثر من مناسبة ما وقف عليه من خط والده من

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تمائم وأدعية يعلقها المرء جلبا للمنفعة، أو دفعا للضـرر، نذكر من ذلك تمثيلا ما يحمل لفتوح القرآن حيث يقول المؤلف: "وجدت بخط والدي – رحمه الله – ما نصه بعد البسملة والصلاة على النبيﷺ.قال الإمام حُجَّة الإســـلام: فتوح القرآن . ما كتبها أحد في رقعة وحملها معه إلا فتح الله عليه بكل خير و هي: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَّاتِيَ بِالفَتْحِ أَوَ اَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ (سورة المائدة .الآية .52).﴿عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (ســـورة الأنعام الآية .59).﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (ســـورة الأعراف الآية.89 .).﴿وَلَوْ انَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّـــمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (ســـورة الأعراف الآية .96).﴿إِنْ تَسْـــتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ (ســـورة الأنفال. الآية .19.). ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَـاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ (سـورة يوسـف الآية .65).﴿وَاسْـتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (سـورة ابراهيم الآية .15)﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّـمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (سـورة الحجر الآية 14)﴿ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ (ســـورة الشـــعراء الآية 117/118)﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِـــكَ لَهَا﴾ (ســـورة فاطر. الآية 02)﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا﴾ (ســـورة المؤمنون الآية 77)﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (ســـورة الفتح . الآية 01) ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّـجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (ســـورة الفتح . الآية 18) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَاخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (ســـورة الفتح الآية. 18)﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ (سورة القمر. الآية .11)﴿نصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ﴾ (سـورة الصـف الآية . 13) ﴿وَفُتِحَتِ السَّـمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ (سـورة النبأ الآية .)﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (سورة النصر الآية . 01)انتهى من خطه رحمه الله" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 03).

ولم يكتف المؤلف بعرض هذه المســـألة من باب تقديم الفائدة وتوثيق المعلومة، بل نراه يؤكد لقارئه على الصـــفة التي وجدها في تركة أبيه مما جعله يُجربُها، ويؤكد نجاعتَها كما قال: "...قلت ووجدتها عنده معلَّقة بكاغد أبيض، وكتب عليه حجاب، وجَرَّبتُه فوجدته كما قال حُجّة الإســـلام. وعلمت أن الشيخ –رحمه الله – وجد له بركة لأنه لا يكتب من مثل هذا إلا ما كان صحيحا عن أجِلَّة عظام" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 03).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ومما نقله لنا المؤلف من الفوائد المجرّبة في هذا المجال أيضـــا، ما ذكر أنه يكتب، ويعلق لإذهاب الخوف والغم حيث ينقل لنا عن والده الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ قوله: "قال بعض العلماء المحققين: ومما جُرب لإذهاب الخَوف والهَمَّ والغَمَّ أن يكتب هاتين الآيتين ويعلقها، فإن الله يبارك له في جميع أحواله، وينصـــره على جميع أعدائه، وهما تنفعان للأمراض الباطنة، ولكل ألم يحدث في بدن الإنســـان، فإنه يزول ويبرى من يومه في الغالب. كما جُرِّب مرارا، وهما من الأسـرار المخزونة كذا قال شـيخنا الرافعي. وكل آية منها تجمع الحروف المعجمة بأسرها. الآية الأولى من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ...﴾ إلى ﴿الصدور﴾ (سورة آل عمران .الآية 154). الأخرى من سورة الفتح .قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى آخر السورة (سورة الفتح . الآية 29). انتهى" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 03).

وبعد هذا العرض يعلّق المؤلف على عادته حول أهمية هذا الحرز، وما ثبت فيه من نقول وتجارب عن الإمام الشـعراني حيث يقول: " وتحتها ما نصـه: كان سـيدي محمد الحنفي ﷺ يقول مما جربناه فصَحَّ لمن أراد قضاء حوائجه، ودفع مَضَاره، فليرجع الأمر إلى الله تعالى قبل أن يعلم به أحد من المخلوقين. هكذا أعاده الله مع من تعلق به أول مرة، فاعمل على ذلك فإنه كالكِبريت الأحمر، والمعين على ذلك الصبر انتهى. من (الطبقات) للإمام الشعراني" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 03).

ومن نُقُول المؤلف في التمائم ما ثبت عنه من تعليق لطلب الحوائج حيث يقول:" ... ومما يُكتب ويعلَّق في العمامة على الرأس لطلب الحوائج، وقد جُرِّبَ ذلك فَصَـــحّ ووُقِف على بركته، وهو هذا وتقرأه عند اللقاء: الله الرحمن الرحيم الملك إياك نعبد وإياك نسـتعين، وأصْـلُ ذلك الإخلاص صـح منه. الكريم الوهاب ذو الطول. من دَاوَم ذِكْرَه رَزَقَه الله من حيث لا يحتسـب صـحَّ منه. قال بعض الحكماء لا أذهب للهموم والأحزان من الإيمان بالقدر." (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 04).

ومن الفوائد التي يقدمها لنا المؤلف في هذا الباب أيضا ما وقف عليه معاينة مع والده في ما كان يكتبه ويستعمله لحفظ أوعيته، وكُتُبه وما عَزَّ عليه حيث يقول: " ... ومما يكتب على البضائع فيحفظها، ويكون حِرْزاً لها ما وُجِد بخط الإمام الحكيم –رحمه الله – صـــاحب الزهراوي وهو: أحرزت كذا ما يجعل فيه ،أو عليه .بســـم الله الرحمن الرحيم وبالحي الذي لا يموت وألجأت ظهري فحفظه إلى الحي القيوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. و قد تكتب هذه الكلمات وتعلق على الأطفال، فتكون حرزا لهم من كل شـيء انتهى. من كتاب (كنز الملوك) انتهى من خط الشـيخ رحمه الله .... وكثيرا ما أجد الشـيخ –

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

رحمه الله – يجعلها في أمتعته وكُتُبه وأوعيَّته وما عَزَّ عليه، فوجدت ورقة في كتبه في دارنا: أحْرَزْتُ هذه الدار بسم الله الرحمن الرحيم وبالحي الذي لا يموت، وألجأت ظهري في حفظها إلى الحي القيوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .وإذا كتبها لأحد قال: أحْرَزَتْ حاملَهُ ومن معه إلخ" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 04).

والمؤلف كعادته لا يكتفي بتقديم هذه الفوائد التي نقلها عن والده بهدف الاستفادة منها، بل نراه يتعدى ذلك إلى مناقشة المسألة فقهيا، وتقديم أهم ما وقف عليه في ذلك من مواقف، وآراء الفقهاء حيث يقول: ... ورأيت في (الأجوبة الناصرية) كلاما في نقط الأحراز ونصه: وسئل عن التمائم التي تعلق هل يطلب عدم نقط حروفها أم لا ؟ فأجاب إنه إذا كتبها بنقطها إن شاء، وإن ترك نقطها ينوي به الاقتداء بالصحابة في تركهم النقط. وحكى عن الشيخ أبي العباس أحمد بن جعفر السّبْتي أنه طلب منه إنسان أن يكتب له تَمِيمَة، فكتب له نقطة واحدة من غير زيادة عليها، فقال الطالب في ذلك أما علمت أن أصل الحروف كلها النقطة. فقال الشيخ معناه : إن كل حرف ابتداؤه النقطة، وتَحُدُّها كيف شئت إما أعلى وإما أسفل وإما أمام انتهى." (ضيف الله بن محمد بن أبّ. ص 04).

ولعل أخر ما نقف عليه من جملة المسائل الدينية الواردة في الرحلة هو إشارة المؤلف إلى عادة ساكنة المنطقة في المحافظة على كثير من أورادها، وأدعيتها الدينية سواء أكان ذلك في ألفاظها ومضمونها، أم في شكلها وطريقة أدائها، ونلتمس ذلك من خلال ما أطْلَعَنا عليه المؤلف من تصويب والده سيدي محمد بن أُبَّ لنُطْق بعض ألفاظ دعاء ما بعد صلاة التراويح وإعرابه، وهو الدعاء والذكر الجماعي الذي لازال يؤدى إلى الآن في عامة المساجد التواتية حيث قال ابن أُبَّ:

"إذا كُنْتَ يا ذَا الُّلبِّ في الحَقِّ تَرْغَبُ وفي الحَقِّ مَا يُصْغَى إِلَيهِ ويُطْرَبُ
فَقُلْ يَا قَرِيبُ وابْنِهِ فِي نِدائِهِ عَلَى الضَّمِّ واقْتَفِي نَحْوَهُ فَهْوَ أَصْوَبُ
وَلَا تَسْتَبِحْ تَنْوِينَهُ يُا أَخَ الحِجَا فَتضْحِي إذاً مِمَّنْ إِلَى النَّحْوِ يُنْسَبُ
ومَهْمَا أَتَى فِي الشِّعْرِ فَهْوَ ضَرُورَةٌ وَكَمْ قَدْ أَبَاحَ الحَظْرُ فِي الشِّعْرِ مَأْرَبُ
وَقَوْلُهُم يَا حَاضِراً لَا يَغِيبُ جَا بِوَجْهَينِ مَرْوِيَينِ وَالنَّصْبُ أَقْرَبُ
كَذَلِكَ يَا فَعَّالُ حَيْثُ أَتَى هُنَا مُضَافاً لِمَا يُرِيدُ بِالنَّصْبِ يُعْرَبُ
كَذَاكَ مَوْصوفاً أَتَى قَبْلَ بِالكَمَا لِ شِبهُ مُضَافٍ دُونَ خُلْفٍ فَيُنْصَبُ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وَقُلْ يَا عَـظِـمٌ ذَا الجَـلَالِ بِنَصْبِ ذَا تَـفُزْ بِمَقَـالِ رَبِّـهِ لا يـشــرَبُ
فَتَابِعْ ذَا الضَّمِّ المضَــافِ بِدُونِ أَلْ لَدَى كُـلِّ نَحْوِيٍّ لَهُ النَّصْبُ يُوجَبُ
وَمَنْ يَعْتَمِدْ عَكْسَ الذِي قَدْ شَرَحْتُهُ فَذَاكَ لَهُ عَنْ مَـذْهَبِ الــحَقِّ مَذْهَبُ "(ضيف الله بن محمد بن أب. ص 96).

وبالجملة فإن مسائل الدين والتعليم، وعموم متعلقاتهما من" ألفاظ "الخط" و"المداد " و"الدواة" و"الكاغد" قد تكررت أكثر من مرة ، وفي شتى الأشكال والاستعمالات . وهو تكرار يدل على أهمية وحضور هذه الأدوات في يوميات كثير من العامة وخاصتهم على السواء" .(جعفري أحمد.2020.ص 41)

هو غيض من فيض مسائل دينية عجّت بها الرحلة، وناقشها المؤلف بأسلوبه السهل الممتنع ليعطينا بذلك صورة حية لواقع الحياة الدينية لساكنة الاقليم التواتي خلال القرن الثامن عشر الهجري وما قبله.

03/ القضايا الاجتماعية في الرحلة:

لقد ضـمت الرحلة بين جنباتها عديد الأخبار الاجتماعية، وما كان عليه حال بعض من سـاكنة الإقليم، ولعل من أبرز ذلك حديث المؤلف عن المرأة المحجوبية التي التقاها وتحاور معها، ليعكس لنا من خلال ذلك واقع المرأة التَّواتية الســيِّدة في مجتمعها، والمتميزة بحديثها ولباســـها، وكذا عاداتها وتقاليدها، وكيف أنها كانت تخرج متزينة بأسوارها الذهبية ،ولباسـها الرفيع، متقدمة في ذلك على خادمتها التي تسير خلفها لتلبي حاجياتها، بل الأكثر من هذا نرى في هذه الحادثة صـــورة المرأة المتعلمة المطلعة على علم الأنساب، العارفة لعلوم لغتها، فهي تحدث الشيخ ضيف الله بلغة عربية فصيحة ــ كما قال ــ وتناقشه في نسبه، وأصله بين القبائل العربية ، وفي ذلك كله يقول المؤلف: "وسرنا لبلد المنصور بكرة، ففرشت زربيتي عند فم القصر وجلست، فبينما أنا كذلك والناس يسلمون علي رجالا ونساء، إذ خرجت امرأة من القصر سـيماها ليسـت كسـيماهم، بيدها خواتم مسـتوية القامة. ونسـاء البلد كلها كالزنانير محززات في الوسـط بالحزام كأهل تدكلت، وهي ليســت كذلك، فســلمت علي ســلاما كثيرا، ورددت عليها مثله، ومعها صــاحبتها تخدمها من بلد الجديد.... فســألتني من أنت بلســان فصــيح ذلق، وقلت لها : من توات، قلتُ لعلها تكفيها هذه الكلمة .قالت : من أي توات ؟ قلت : من الزاوية .قالت : وأي الزوايا؟ الزاوية الكبيرة ؟.قلت : نعم . فسألتني عن أهل الزاوية كلهم رجلا وامرأة، شرفاء ومرابطين حتى نسائها، فقلت :

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

من أنت ؟قالت : فلانة بنت فلان، فشـــككت أنها المحجوبية، وذكرت أنه زوجها مولاي أحمد بن عبد الواحد، فَحَقَّقْتُ حينئذ فقلت، وكنت سمعت أنها بقُرَارة، ولم أدر أي بلد. فقلت لها : أنت المحجوبية، فجددت عليها السـلام، وقالت: أنتم دمُنا ولحمنا، وأكثرت علي من ذلك، وسـألتني عن زوجها الحاج بن جناني هل التقيت معه؟ فقلت: لا . قالت : لا تَبِتْ عند أحد وتقيم عندنا، فقلت لها :إني مســـتدب، وجاءني رجل كان يسلم علي، وأدخلني المسجد وفرَّشَ لي، وجاءني بثمر عجيب، فإذا هو حَمُوها، فقال لي : يا سيدي ما عرفتك، لكن عرفت أنك دم كبير شريف" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 94).

وفي هذا النص إشارة خاصة إلى طريقة اللباس عند نساء الإقليم، وما تتميز به نساء منطقة توات الوسطى عن نساء إقليمَي قورارة وتدكلت.

وإضافة إلى هذا لم تغفل الرحلة أيضا الحديث عن أهم العادات المتوارثة في الإقليم حيث كانت للمؤلف التفاتته الخاصة في الموضوع معلقا وشارحا، أو منتقدا وممتعظا، مثلما الأمر مع عادة ضيافة النَّوبَات المنتشرة إلى الآن في بعض مناطق الإقليم، وكذا عادة أكل السَّفوف الجماعية، وعادة نهب اللحم الجماعية والمعروفة محليا ب(خَطَافَة)، والتي تحولّت فيما بعد إلى ما أصبح يعرف بعادة (التَّسْمَار). وكذلك عملية تحضير الطعام التواتي، وما تشتهر به في ذلك مما يعرف محليا بالمعاودة في الطعام، وما إلى ذلك من الأمور.

والبداية لنا مع المؤلف في كل ذلك مع ما وقَفَ عليه معاينة في تعامل ساكنة الإقليم مع الضيف، والعناية الشديدة به، سواء أكان ذلك من خلال الزوايا المنتشرة في الإقليم والمعروفة بنظام النَّوبات، أم من خلال جهود الأفراد الخاصة. وقد تحدث المؤلف بإسهاب واصفا ما شاهده تمثيلا في زاوية الجديد بإقليم توات، وزاويا أقبلي، وإنبلبال، والشيخ سيدي أبي الأنوار بإقليم تدكلت، وزاوية أوفران، والواجدة، وزاوية أولاد القاسم بإقليم قورارة.

وقد فصَّل الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي هذا الأمر وقال في وصف ساكنة الإقليم: "... ومن عادتهم إكرام الضيف، والمسافر لا يحتاج إلى حمل الزاد معه، لأن في كل قصر من قصورها عادات، فإذا كان القصر فيه زاوية لها أحباس على إطعام الطعام للأضياف فإن المسافر يقصد دار الزاوية فيجد فيها كل ما يحتاج إليه هو ومن معه، فيجد حتى علف الدواب... وما أكثر هذه الزوايا في ذلك القطر العزيز المبارك"(الطاهري مولاي أحمد .ص 34)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

و في طريقة أكل السفوف(14) نقل المؤلف عن والده قوله: "كنت أسافر بتوات وغيرها مع والدي – رحمه الله –فينهى عن شِرْكَة السَّفُوف ، ويقضي منه مراده وحده ويدفعه لنا، ولقد أجاد في ذلك لأن الإنسان لا يتمكن منه إذا قلب رأسه، كالدجاجة إذا شَربت لاسيما تَمْرُ توات الذي هو ضعيف الرَّبُّ (15) فلا يتمكن الإنسان من ضَمّه في يده وجَعْلِه في فمه بالسِّتْرَة، فإذا أراد فعله فيه سقط [ما] على رأسه من قلنسوة ،أو عمامة إلا [إذا] شدَّها بيده الأخرى، وفي ذلك تكلف لاسيما لأهل الهيئة، لآن كشف الرأس قد يكون عقوبة لبعض الناس، فحكمه ما فعل الشيخ –رحمه الله – لأنه لو كان في زمن النبي ﷺ لنقل إلينا حكمه، لأن الشارع يأمر بحفظ المروءات، وتأخر الحكم بتأخر سببه لا يقتضي تجديد شرع كلما قدمنا فتأمل." (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 28).

وأمَّا عادة نَهْبِ اللحم والتي كانت موجودة قديما، وقد استُبدلت حديثا بعادة توزيع اللحم على الحضور بأطراف صغيرة تماشيا مع عملية الأكل، والمعروفة محليا ب(التَّسْمار) ،فيقول المؤلف في حقها: " مما اشتهر عندنا مما ينكره غيرنا نَهْبُ اللحم على الموائد، وذلك من قديم إلى هلم جرا، وربما صار فعله مدحا، وتركه ذما، لأنه كثر فاعلوه حتى صار من لم يفعله خارجا عن جماعتنا، ولا يحمد تاركه، ولا يذم فاعله وخصوصا معشر كُنَاتَة ومَن تَزَيَّا بزَيِّهِم، والفعلة الذميمة إذا شئت لكرام الناس صارت رفيعة" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 28).

وقد حاول المؤلف التأصيل لهذه العادة، وذكر ما جاء في الأثر عن سيدنا مُعاذ بن جبلﷺ أنه قال: "شهدت أملاك رجل من الأنصار مع النبيﷺ فخطب ﷺ وأملك الأنصاري، ثم قال على الألفة والطائر الميمون، ثم قال دفّعوا على باب صاحبِكم، وأقبَلت السِّلال فيها الفواكه والسّكر فنثَرَ عليهم، فأمسَك القومُ، فلم ينْتَهِبوا فقال النبيﷺ: ألا تَنْتَهِبوا؟ ،فقالوا: يا رسول الله إنك نَهَيت عن النُّهبة يوم كذا وكذا، فقال: إنما نهيتُكم عن نُهْبَة العسَاكر ولم أَنْهَكُم عن نُهبَة الولائم، ثم قال ألا فانْتَهِبوا .قال مُعاذ : ألا فانْتَهِبوا .قال معاذ : فو الله قد رأيت النبيَّ ﷺ يَجْذِبُنا ونجذبه في ذلك النهار". (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 28).

وعادة نهب اللحم– كما يعتقد المؤلف – قد تكون أفضل من تركه في يد من لا نعرف شيئا عن طهارة يده، ولا عن عدلِه في التوزيع بالتساوي بين جماعته مما قد ينعكس على العلاقة بين الجميع، وفي ذلك يقول: " وفي هذه السِّيرة ما هو واجب، وهو حفظ المروءة، ألا ترى أنه إذا جُعل اللَّحم تحت يد خماس

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لِيُفَرِّقَه فالأَولى: لا ندري هل يداه طاهرتان أم لا، فإن قلنا بطهارتها، فربما تميل نفسه لبعض الناس دون بعض ... فيصطحب مع رغبه، ويظهرنه المنة مع نقصان الهمَّة لمد يده لدني، ألا ترى أن اليد العليا خير من اليد السُّفلى، ويغتاظ عليه من رغب عنه، فيحصل عنه مُحرمات، وربما هجَره كما وقع لبعض الطلبة حتى حلف لا صلى على ذلك الرجل الذي قسَّم اللحم إن مات كأنه عرف أجَلَه، فأعرف هذا وأنصف." (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 28).

ومن المظاهر الاجتماعية التي تطلعنا عليها الرحلة كذلك ما كان يعانيه الإقليم من الهجوم الكاسح للجراد الذي كان يأتي على الأخضر واليابس، وكانت الأسر تَتَعَقَّبُه بكل أفرادها ليلا ونهار، رجالا ونساء، شيوخا وأطفالا، حيث تتعطل وقتها جميع المصالح والأشغال، ليكون الشغل الشاغل هو حراسة الغَلَّات والمحاصيل في الحقول والبساتين. وكان الشيخ أُبَّ جد المؤلف واحدا من هؤلاء لكنه كان فريدا بين قومه، ورفض رفضا قاطعا أن يخرج ابنه سيدي محمد بن أُبَّ لصد الجراد والدفاع عن المحاصيل، وأصر على ملازمة ابنه محمد لمجالس الدرس والقراءة كما جاء على لسان المؤلف حين قال: "حدَّثني من أثِقُ به أن عاما كَثُرَ الجراد فيه، فلم يبقَ من أهل البلد أحد إلا مشَى لجنانه يَرعى حَرَّتَه لِقَلَّا يأكلَهُ، حتى العَوام.... وذلك في حياة جَدّي أُبَّ المذكُور، فمشَى والدي –رحمه الله – للجِنان مع النِّساء فلما سَمعَه أبوهُ اغتاظَ لذلك غَيظا شَديدا، وردّ أبي وقال: ارجِع لقراءتِك فهي خيرٌ من هَذا كُلِّهِ، فبلَّغَهُ الله تعالى مُرادَه فيه والحمد لله" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 10).

وفي أخبار الجراد أيضا ينقل لنا المؤلف سيدي ضيف الله أن والده طلب منه في يوم مُقمر من أيام الجراد تلك أن يحضر له دواة ولوحا ومزبرا، وأخذهما الشيخ ابن أب وتقدَّم للقمر وأنشد في الحال من غير انتحال:

حَفَّ الجَـرَادُ بـنا مِنْ كُلِّ ناحِيَّةٍ لكِنَّـنَا ما لَـنا عَـلَى الدِّفاعِ يَـدُه

يا ربَّنَا الطُفْ بـنا في كُلِّ حَادِثَةٍ يَا مَنْ عَلى فَضْلِهِ فِي الخَطْبِ نَعْتَمِدُه

وقبل أن يختم المؤلف حديثه عن الجراد ينقل لنا بعضا من عادات الأسر التَّواتية في قصتها مع الجراد حيث تحرس العديد من الأسر على قبضه وأكله، ويُرسِلُ السادة في ذلك عبيدهم خصيصا لفعل ذلك كما كان الشأن مع المرأة الباعليَّة التي قص علينا الشيخ سيدي اعمر الرقَّادي قصَّتها على لسان المؤلف، ونقلها في باب المضحكات وقال: "حدثني شيخنا سيدي أعمر – رحمه الله – مضحكات لنا أن امرأة من

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أولاد باعلي أرسلت عبدها ليقْبِضَ لَهَا، وكان كثيرا، فمكث ما شاء الله ثم جاءها بشيء تافه فجدَّعته وسبَّتْه، فقال لها: يا لالا هذا خير من كثير في الطيور الطَّيَّارة" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 59).

ولعل من أطرف العادات الاجتماعية التي كانت سائدة وسط الإقليم على عهد المؤلف، وظلت كذلك إلى وقت متأخر عند بعض القبائل بعينها عادة (أَسْلان)، وهي دعوة العريس لأكبر عدد من الناس لوليمة عرسه بهدف جمع أكبر عدد من التبرعات والإعانات المادية. وهذه العادة انتقدها والد المؤلف الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ، وأوصى ابنه الشيخ سيدي ضيف الله بأن لا يدعوا إلى وليمة عرسه إلا القليل من جماعة البلدة، وكذا كبار السن الذين لا تحدثهم نفسهم بخلاف ذلك كما قال: " ...ونُؤَكِّدُ عَلَيك إذا دَخَلتَ فَلا تَدْعُ لِوَلِيمَتِك إلا القَلِيلَ مِن الجَمَاعة، وهُم كِبَارُ النَّاسِ الذين لا تُحَدِّثُهُم نفسهم أنَّك تُرِيدُ مِنْهُم (أَسْلَان) وأما غَيرُهُم مِمَّن هُو اليوم في تلك السَّيرَة، فَلا يَليقُ بك أن تَدعُوهُم أَصْلا، لأَنَّكَ إنْ فَضَحتَ لَهُمْ بعدَم إرَادَةِ أَسْلان لَمْ يُصَدِّقُوكَ، ولا تُحَدِّثُهُم أنفُسُهُم إلا بِخِلاف ذلك، فَتَرْكُ دَعوَتِهِم أصْلا هي الهِمَّةِ لَكَ .وكان عَمُّكَ عبدُ الله –رحمه الله – مِثْلَك، فدعاهم، وبَيَّنَ لَهُم فَقَالوا بلسَان الحَال أو المقَال: لَوْ لم يُرِدْ أَسْلَان لَمَا دَعَانا أَصْلا وَحَلَفوا لَا تَرَكُوه .والسَّعِيدُ من اتَّعَظَ بغَيرِهِ انتهى" (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 08).

ولأن جزء كبيرا من الرحلة قَطَعَه المؤلف في شهر رمضان، والفصل صيف، فإنه كان يختار الليل لسفره، ولذلك استطاع أن ينقل لنا بعضا من عادات ساكنة الإقليم في هذا الشهر الكريم ومنها عادة "الدَّنْدُون" أو "بوسَحُّور" ،وهو الرجل الذي يتولى ايقاظ الناس للسحور في رمضان في وقت لم تكن فيه المنبهات، وقد أخذ اسمه من الدَّنْدُون أو الطبل الذي يحمله هذا الرجل في يده، ويضرب عليه في تجواله بين بيوت ساكنة البلدة لإيقاظهم، كما يحمل اسمه الثاني من زمن ممارسة الفعل وهو وقت السحور. وقد أخبرنا المؤلف في رحلته بأنه كان هو ورفاقه لا يتنقلون في الغالب من موضع إلى آخر إلا حينما يضرب بوسَحُّور دَنْدُونَه، مثلما حدث له في بلدات المنصور وكبرتن وعزي وغيرها حيث يقول في ذلك: " فلما ضَرَبَ صاحب الدَّنْدُون، وتسميه الخنَافِسَة بوسَحُّور –وهو اسم خفيف موافق–ارتحلنا من المنصور، فسرنا قليلا فتلفنا عن الطريق لأني ما رأيتها قط، ولو رأيتها لم أُغْنَ فيها شيئا. لكل علم رجال" (ضيف الله بن محمد بن أب. ص 97).

وغير بعيد عن بلدة المنصور وفي بلدة أولاد محمود وقف المؤلف على عادة اجتماعية أخرى من عادات ساكنة الإقليم في تعاملهم هذه المرة مع أسراب البعوض التي كانت تأتي على المنطقة في بعض

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الفصول وفي ذلك يقول المؤلف: "حدَّثني من أثق به أنه يكثُرُ عندهم البعوض في بعض الأزمنة، حتى أن بعضهم إذا أراد أن يسقي حَرثَه أوقَدَ النَّارَ في أمقُّوس عن يمينه وشماله، فيكثر الدخان، فيَخِفُّ عَنْهُ "(ضيف الله بن محمد بن أب . ص 98).

ومن المظاهر الاجتماعية التي لفتت انتباه المؤلف وهو في بلدات دلدول وقوف كلاب الحراسة على بعض البنايات الخاصة، كما الأمر مع قصر الشيخ عبد المولى الذي انتُدِبَ لِحِرَاسَتِه ـ كما قال المؤلف ـ كلب غليظ مدرب كالإنسان وفي ذلك يقول المؤلف: "وأرسلت لدار الشيخ عبد المولى أسلِّم عليهم، وما منعني أن أدخل عليهم إلا خوف الكلاب، وكانوا أرسلوا لي بالدخول، ورأيت كلبا عندهم قصيرا غليظا سمعتُ عنه أنه يغلق الباب كالإنسان " (ضيف الله بن محمد بن أب .ص 93).

وأخيرا نقف مع المؤلف في جانب آخر من الواقع الاجتماعي لساكنة الإقليم خلال القرن الثاني عشر الهجري وما قبله، وأعني به الأمثال العامية المرآة العاكسة للمجتمع، وفي هذا الإطار وجدنا المؤلف يستعين في أكثر من مناسبة بخلاصة تجربة العامة، وزبدة أقوالها في شتى المضارب والمناسبات.

حيث يطلعنا المؤلف بداية على ما حدث له خطأ في بلدة تقراف بناحية تدكلت، حيث كان شدة حرص أعيان البلدة على ضيافته سببا في عدم تناوله العشاء عند أي منهم ، وهو ما جعله يستحضر للمقام قول العامة (الضيف العزيز يبات بلا عشا).

وحينما أراد أن ينبهنا إلى أنه فهم إشارة أبيه في عدم رغبته في سفر ابنه لناحية الصحراء وبلدات الساحل، وهذا من خلال كثرة القصص المنفرة التي سمعها من أبيه عن صعوبة العيش في تلك الناحية راح يستحضر لنا في ذلك أيضا قول العامة : (العاقل بغَمْزَة والأحمق بدبْزة).

وحينما أراد أن يخبرنا بأنه لم يكن مخيرا في اختيار مرافقيه في هذه الرحلة، وأنها جمعته بشتى الأصناف من الناس لخص لنا ذلك بما أثر عن العامة في مثل هذا المضرب وقال: (الوَيْلْ حَازْنِي عَلَى حْدِيثَكْ يَا مَسْعُودَة).

وحينما أراد المؤلف أن يخبرنا بأن والده يستشير في بعض مسائله، لكنه لا يعمل بالضرورة برأي المشير عليه وظف قول العامة التي تطلقه على المرأة فقال: (شاورها] ولا تعمل برأيها).

وعند حديثه عن عام الستين وما شهده من أحداث ووقائع دامية في بعض بلدان الإقليم استحضر لذلك ما سجلته لنا ذاكرة العامة في ذلك حين قالت: (عام الستّين بع الكسا واشري السكين).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وأخيرا وعند حديثه عن ورع أبيه وزهده عن ما في أيدي الناس متوقعا لذلك ردة فعل بعض الجهال حين يسمع هذا المقال جعله يستحضر قول العامة التي تعبر عن لسان حال هؤلاء قائلين:(المِشْ إلى مَا صَابْ التَّاغُويَا يقُول خَانْزَة).

و هي كلها أمثال شعبية لا زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ بها وبغيرها إلى وقتنا الحاضر.

05خاتمة

و في ختام هذا البحث أمكن القول أن هذه الرحلة هي بحق من أنفس وأقدم المخطوطات التي أرخت لواقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية داخل الإقليم التواتي على مدار عصور من الزمن، ولم يكتف فيها المؤلف عند حدود نقل الخبر وسرده بل تعداه أحيانا الى إبداء رأيه وموقفه من كثير من القضايا السائدة في عصره .وهي إلى هذا قد أعطتنا صورة حية لكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية داخل الاقليم .كما وقفت عند كثير من المظاهر الاقتصادية التي شهدها الاقليم في عصر المؤلف وكان لها وقعها المباشر على حياة الساكنة .

إلى هذا كله فقد نقلت لنا صورة مصغرة لواقع الحياة العلمية في المنطقة وما شهدته من حراك ثقافي بين مجموع علماء المنطقة ونظرائهم من داخل الجزائر وخارجها.

و قبل كل هذا وذاك فإن الرحلة قد قدّمت لنا معلومات ضافية وشافية عن عائلة الشيخ سيدي محمد بن أُبَّ الصغيرة والكبيرة، وأزاحت اللثام في ذلك عن كثير من التي كانت تحوم حول نسبة والد المؤلف وموطنه الأصلي. كما عكست لنا ثقافة المؤلف نفسه ومدى تَشَبُّعِه بروح الثقافة العربية الإسلامية، وهو ما مكَّنَه من الرجوع إلى نصف سور القرآن الكريم، بما يزيد عن تسعين آية قرآنية، ومائة حديث نبوي شريف ناهيك عن الأشعار والأمثال العربية القديمة.

الإحالات و الهوامش:

01/ هو الشيخ محمد بن أب المزمري والد المؤلف وأحد أهم علماء توات خلال القرن 12هـ خلف عديد المؤلفات في الفقه واللغة وغير ذلك ، غير أن جل هذه المخطوطات لم يحقق بعد، وبعضها الآخر حقق ونسب لغيره جهلا، ولد الشيخ المزمري سنة 1096هـ وتوفي سنة 1160 .(ينظر مقال: أحمد جعفري 2021.نظم منثور ابن آجروم الشهير بين عبيد ربه الشنقيطي الموريتاني ومحمد بن أب المزمري التواتي الجزائري

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

.من الناظم لماذا وكيف. مجلة رفوف. المجلد التاسع، العدد الأول.ص.24-59.
https://www.asjp.cerist.dz/en/article/143916

02/ ذكر لي الأستاذ عبد الرحمن الجوزي أحد أحفاد عائلة الجوزي بتيميمون أن القاضي الجوزي المقصود هنا هو قاضي بلد تِلُّ وقورارة الشيخ الفقيه القاضي أبو زيد سيدي امحمد عبد الرحمن بن محمد الجوزي بن محمد عبد الله بن عبد الكريم أخذ في تنلان عن الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التنلاني المتوفى سنة(1152هـ). توفي الشيخ سيدي امحمد عبد الرحمن بين تاريخ 25 ربيع الثاني 1172هـ تاريخ كتابته لوصيته، وسنة 1182هـ تاريخ نسخ الناسخ لتلك الوصية وترحمه عليه في نهاية النسخة. وهو مدفون ببلد أولاد اسعيد بإقليم قورارة .

03 المخطوطة جاءت مؤرخة بتاريخ أواخر شعبان عام ثمان وسبعين ومائة وألف (1178هـ) هجرية . وهي محفوظ في مكتبة الطالب أحمد بن حسان ببلدة عريان الراس، شمال الولاية أدرار. وتوجد نسخ منها في خزانة الشيخ مولاي أحمد بن مولاي عبد الحاكم بن مولاي لحسن ببلدة كالي بلدية أولاد سعيد دائرة تيميمون ولاية أدرار.

04 المخطوط محفوظ في نسخته الأصلية بمكتبة أحمد بابا بتمبكتو بجمهورية مالي وهو تحت رقم :615 وهو في ثلاث ورقات وخمس صفحات. وقد كتب بخط مغربي مقروء .وقد تحصلت على نسخة رقمية منه.

05/ المخطوط محفوظ في نسختين بخزانة أنزجمير ولاية أدرار .

06 المخطوطة محفوظة في خزانة أنزجمير ولاية أدرار

07 مخطوط رسالة الشيخ سيدي المغيلي بن أحمد بن عبد الرحمن للشيخ سيدي أبي فارس محمد عبد العزيز البلبالي .مخطوط محفوظ بخزانة أنزجمير أدرار.

08/ مخطوط محفوظ بخزانة الشيخ مولاي لحسن بن مولاي لحسن بن مولاي أحمد. قصر أولاد موسى شروين.

09/ من قصور بلدية رقان جنوب الجزائر ، تبعد عن مقر الولاية أدرار بنحو 130كلم.

10 هو الشيخ سيدي عبد الرحمن بن أبي إسحاق الجنتوري، أصله من قصر تطاف، ثم انتقل أجداده لبلد إنصالح، ومنا إلى جنتور بإقليم قورارة. يكنى بخديم الأشراف. أخذ عن الشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التنلاني وغيره. ثم انتقل إلى فاس، وأخذ عن مشائخها. توفي ليلة الاثنين الخامس من جمادى الأولى سنة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

1160هـ. من آثاره: منظومة في التوحيد وشرحه عليها، شرح على مختصر خليل، منظومة في الفرائض، رجز في علم الكلام، تأليف في التصوف، إضافة إلى نوازله الفقهية التي جمعها تلميذه الشيخ سيدي محمد بن أحمد بن عبد العزيز المسعدي الجراري.(أحمد أبالصافي جعفري.2009.ج 01.ص 44).

11هو الشيخ سيدي عمر بن الحاج عبد القادر التواتي ولد عام 1098هـ، درس بفاس عن الشيخ محمد بن أحمد المنساوي، ومحمد بن عبد الله الفلالي، ومحمد بن زكري الفاسي.كان عالما فقيها ونحويا. تولى التدريس بجامع القرويين بفاس، كما تولى قضاء الجامعة بتوات سنة 1129.توفي عشية الأربعاء الثالث من ربيع الأول سنة 1152هـ. (أحمد أبالصافي جعفري.2009.ج 01.ص 56).

12 السَّفوف التمر المدقوق سبق التعريف به .

13 الرَّبّ : الماء العسلي الذي يتقاطر من ثمر النخل بعد نضجه . سبق التعريف به .

المصادر والمراجع

01/ أحمد أبالصافي جعفري.2015. الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 7 حتى نهاية القرن 13 هـ. دار الكتاب العربي، ط01، الجزائر.

02/ أحمد جعفري 2021.نظم منثور ابن آجروم الشهير بين عبيد ربه الشنقيطي الموريتاني ومحمد بن أب المزمري التواتي الجزائري .من الناظم لماذا وكيف. مجلة رفوف. المجلد التاسع، العدد الأول.ص.24-59. . https://www.asjp.cerist.dz/en/article/143916

03/ أحمد جعفري 2020. جهود علماء الجزائر قديما في مجال صناعة المداد و الألوان. دراسة وصفية في تقييدات ووثائق مخطوطة. مجلة رفوف. المجلد الثامن، العدد الثاني.ص.41-69. https://www.asjp.cerist.dz/en/article/128650

04/ ضيف الله بن محمد بن أب . مخطوط"الحُصون المنيعة في أحكام الوزيعَة. محفوظ في مكتبة الطالب أحمد بن حسان ببلدة عريان الراس، شمال الولاية أدرار. وتوجد نسخ منها في خزانة الشيخ مولاي أحمد بن مولاي عبد الحاكم بن مولاي لحسن ببلدة كالي بلدية أولاد سعيد دائرة تيميمون ولاية أدرار.

05/ ضيف الله بن محمد بن أب . مخطوط "رحلتي لزيارة قبر الوالد" خزانة تمنطيط أدرار.

06/ ضيف الله بن محمد بن أب . مخطوط قصيدة "في جمع أذكار الفِدْيَة من النَّار" المخطوطة محفوظة في خزانة أنزجمير ولاية أدرار.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

07/ ضيف الله بن محمد بن أب . مخطوط قصيدته القافية "حَزِنْتُ لِفَقدِ الصَّالحِين السَّوابِقُ***** وَعَلَّلْتُ نَفْسِي بالبَواقي اللَّوَاحِقِ " المخطوط محفوظ في نسخته الأصلية بمكتبة أحمد بابا بتمبكتو بجمهورية مالي وهو تحت رقم :615 وهو في ثلاث ورقات وخمس صفحات. وقد كتب بخط مغربي مقروء .وقد تحصلت على نسخة رقمية منه.

08/ ضيف الله بن محمد بن أب . مخطوط قصيدته اللامية "حَزِنْتُ لِفَقدِ الصَّالحِين السَّوابِقُ *** وَعَلَّلْتُ نَفْسِي بالبَواقي الأفاضل . في روية المخطوط محفوظ في نسختين بخزانة أنزجمير ولاية أدرار

09/ المغيلي بن أحمد بن عبد الرحمن. مخطوط رسالة للشيخ سيدي أبي فارس محمد عبد العزيز البلبالي .مخطوط محفوظ بخزانة أنزجمير أدرار.